الأدب في سير أعلامه :

١١ ـ تولســـتوى

[قة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

خيوط من النور

وبطل هذه القصة التى هى فى الواقع مجموعة فصول أقوى مثال للصعلوك الذى لا يكترث لشىء والذى لا يتأثم من شىء ، والذى يرضى كل الرضاء عن أعماله جميعاً لا يشعر بأى أثر فى نفسه مما يسميه الناس وازع الضمير ؛ وفكرة القصة الرئيسية التى تدور حولها حوادثها هى أن هذا الصعلوك المسمى شيشكوف قد اعتزم أن يشترى من ملاك الضياع من يموت من رقيق الأرض قبل أن يسجل فى سجل الموتى اسمه ، لكى يرهن هؤلاء للمصرف على أنهم أحياء ويربح من وراء ذلك ربحاً كبيراً ؛ وينتقل من مالك إلى مالك يتواطأ معهم على الإقرار بوجود هؤلاء الرقيق ، وفى أثناء ذلك يصف المؤلف حال هؤلاء النصاء الذين يقول عنهم إنهم لا يحيون كما يحيا الخلق وإنما يوجدون فحسب ! وكان هؤلاء الرقيق يسمون فى روسيا وقتذاك الأنفس وكان الواحد يسمى نفساً ، فإذا سأل أحد الملاك صاحبه عن عدد رقيقه قال له كم نفساً تمتلك ، ومن هنا جاء إسم القصة « الأنفس الميتة » ؛ والقصة مليئة بتلك السخرية القاسية وذلك الضحك الشيطانى الذى يتميز به فن جوجول ...

ونشر جوجول فى نفس الوقت الذى نشر فيه «الأنفس الميتة» قصة كان لها أثرها فى النفوس ؛ وهى ثالثة ما أشرنا إليه من قصصه ، ألا وهى قصة « المباءة » أو « المعطف » أو يؤدى معنى الرداء الخارجى الذى يلبس فوق الملابس جميعاً اتقاء للبرد ، وخلاصة هذه القصة أن أحد الكتبة الفقراء وهو شيخ ضعيف كانت أعظم أمنية له أن يشترى معطفاً ، فما زال على خساسته يقتصد من ماله القليل حتى اشترى المعطف المنشود ، ولكنه مُنى فى أول يوم فرح فيه بمعطفه بفتية من صعاليك الشوارع سرقوا منه المعطف فقضى نحبه من فرط غمه ويأسه ، والقصة على بساطة موضوعها تصف البؤس والشقاء وسوء الحظ أقوى تصوير وأصدقه ...

ولجوجول كما أسلفت القول غير هذا الذى ذكرت كثير من القصص الطويلة والقصيرة والمسرحيات والنبذ الوصفية وما إليها وإنما اخترت هذه القصص الثلاث لأنها أكثر صلة بما نريد بيانه وأعنى به كيف عبر أدباء الروس بالفن عن ثورة نفوسهم المكبوتة

وهكذا كان بوشكين وجوجول ومن دار حولهما من النوابغ يلقون على الأفق الحالك فى حكم نيقولا الأول خيوطاً من النور كانت لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء ...

***

بقيت بعد ذلك كلمة عن تيارين فكريين قوى ظهورهما فى عهد نيقولا وأعنى بهما المدرسة الشرقيـــة والمدرسة الغربية ، أو بعبارة أخرى الاتجاه نحو أوروبا والإبقاء على سلافية روسيا..

وكانت المدرسة الشرقية أو السلافية تؤمن بأن مدنية روسيا غير مدنية أوروبا ، وأن على الروس أن يحذروا مادية الغرب الوضيعة وأن يعودوا إلى تلك الجماعات التعاونية التى أقامها السلاف الأقدمون فى قرى روسيا ؛ وكان قادة هذه المدرسة يعتقدون أن بطرس الأكبر لم يخدم روسيا بقدر ما أساء إليها بمحاولته صبغها بالصبغة الأوروبية ، وكذلك كان أنصار السلافية يعدون الغرب فى طور انحلاله لأنه بعد عن الجانب الروحى من الحياة ، ذلك الجانب الذى اتصفت به روسيا السلافية والذى يجب أن يعيده الروس اليوم سيرتهم الأولى فينعموا بالإيمان والمحبة والتعاون فيما بينهم ، ثم يذيعوا هذه المبادىء حتى تشمل الإنسانية جميعاً فيكون ذلك رسالة روسيا إلى العالم .

أما أنصار المدرسة الغربية ، فكانوا يمزون ما فى روسيا من شقاء العيش وطغيان الحكام إلى عزلتها عن أوروبا وفلسفة أوروبا وعلم أوروبا وثورات أوروبا . فإذا أرادت روسيا أن تخرج مما هى فيه فعليها أن تأخذ بمدنية أوروبا فى كل شىء فهذا سبيلها الذى لا سبيل لها غيره .

ومهما يكن من خلاف بين المدرستين فقد أفادت روسيا من دفاع كل منهما عن وجهتها ، وكانت لها من خلافهما يقظة ،

وبخاصة لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على أمر جوهري وذلك أنه في أي الوضعين لا يرجى لروسيا خير إذا أسلم أمرها إلى رجل واحد يستبد فيها بالأمر ، ويصرف شؤونها كما لو كانت ضيعة من ضياعه .

هذه لمحة في الحال الأدبية في روسيا حتى أواخر حكم نيقولا الأول أي حوالي سنة ١٨٥١ عندما بدأ الفتى ليو تولستوي يتجه في جد إلى الأدب ليغدو بعد أمد غير بعيد أعظم كتاب القصة في القرن التاسع عشر لا في روسيا وحدها بل في أوروبا جميعاً .

هجرته إلى القوقاز

كان لابد للفتى من هجرة إلى بلد ما ، فقد ضاقت نفسه بيسنايا وبموسكو وبيطرسبرج جميعاً ، ومل حياته بين العبث والإسراف فيه والندم والركون إليه حتى لم يعد يطيق شيئا من هذا ، بل إنه لم يعد يصبر حتى على التفكير فيه ...

واتفق أن جاء من القوقاز أخوه الضابط نيقولا إلى ياسنايا في إجازة عيد الميلاد فنصح لأخيه نصحه في كثير مما كان يشغل باله ، ومن ذلك أن يدع الزواج حتى يطمئن إلى ارتباطه برباط الحب ثم حبب إليه أن يصحبه إلى القوقاز فما أسرع ما أخذ ليو برأي أخيه وتأهب للرحيل ... واتفقت الأسرة أن يصرف زوج أخته أمور ضياعه في غيابه وأن يدفع عنه ديونه وذلك على أن يقنع ليو بخمسين ومائة جنيه كل عام حتى يؤدي الدين كله ، وقبل ليو هذا الشرط وسافر في صحبة أخيه ...

ووقفت بهما العربة عند أول محطة على بعد أربعة عشر ميلا فما راعه إلا كلبه الأسود المحبوب قد أقبل يلهث من شدة الحر ومن سرعة العدو حتى لحق به ، وعلم بعد ذلك أنه كسر لوحا من زجاج إحدى نوافذ الغرفة التي كان محبوسا بها وانطلق يعدو ليدركه لأنه لا يطيق أن يرحل عنه .

ويذكرنا هذا الرحيل برحيل « تشايلد هارولد » أو اللورد بيرون حين اضطر إلى مغادرة انجلترة إذ ضاق بها وضاقت به بعد أن أسرف على نفسه فيها أنكره المجتمع منه ، وقد وجه بيرون الخطاب إلى كلبه في أول قصيدته التي وصف فيها رحلته يقول إنه لا يجد من يأسف على رحيله حتى كلبه هذا فلسوف ينساه ويتكره حتى ليثب عليه ويعضه إن قدر له أوبة من غربته ..

كانت رحلة بهيجة سارة ، فقد قطعا جانباً منها إلى استراخان في زورق على صفحة القاجا ، وقد عرجا على موسكو وقازان رقضيا بضعة أيام في كل من المدينتين ، وكتب ليو من موسكو إلى عمته تاتيانا يخبرها في لهجة الفخر أنه استطاع أن يقهر نفسه حين زار ناحية الغجريات ، ويصف لها مقدار ما بذل من مغالبة منه لنوازع نفسه حتى أمكنه أن ينتصر بعد جهد بالغ ...

وفي قازان قابل تلك الفتاة التي عرفها منذ نحو خمسة أعوام صديقة لأخته ماري وأحس يومها بميل شديد نحوها وهي زنايدا مولستفوف ، ولقد أحس أنه على الرغم من تلك الأعوام الخمسة لم يزل بها متعلقا . قال في يومياته بعد ذلك بشهرين « لم أنه بكلمة من كلمات الحب ، ومع ذلك فقد كنت واثقا أنها كانت تدرك مشاعري ، ولئن كانت بادلتني إياها فذلك لأنها كانت تفهمني .. كانت صلاتي بزنايدا يومذاك لا تعدو تلك المرحلة البريئة ، مرحلة انجذاب روحين كل منهما نحو الأخرى ؛ أيداخلك الشك في أني أحبك يازنايدا ، إن كان ذلك فإني أسألك الصفح فإن الخطأ خطأي إذ كان علي أن أؤكد لك ذلك بكلمة .. أتذكرين حديقة كبير القساوسة يازنايدا وممرها الجانبي ؟ كان علي أثلة لساني ما أفصح به عما في نفسي كما كان على لسانك ، ولكن كان علي أن أكون أنا البادىء ؛ أتدرين لماذا فكرت ثم لم أقل شيئا ؟ ذلك لأنني كنت من السعادة بحيث لم يبق ما أرغب فيه ، وخشيت أن أفسد لا هناءتي وحدي بل هناءتينا .. وسيبقى هذا اللقاء أعز ذكرى إلى نفسي حتى نهاية حياتي » .

غادر ليو قازان إلى القوقاز مستمتعاً بصحبة أخيه ، مبتهج النفس بما تركه فيها لقاء زنايدا ، مرتاحا إلى ما يهجس في خاطره من أنه انطلق من حياة العبث انطلاقا لا رجعة فيه ؛ ويجد القارىء وصفا لهذه الحال النفسية في شخصية أولينين بطل قصة « القوزاق » التي كتبها بعد ذلك بقليل ، وكان أولينين كذلك مسافراً قال « في مثل هذه الحال العقلية السعيدة التي يحدث فيها نفسه فجأة شاب يستشعر أخطاءه الماضية قائلا إن ذلك لم يكن حقيقياً ، فكل ما حدث في الماضي كان عرضا عديم الأهمية ،

وإنه حتى ذلك الوقت لم يكن حاول محاولة جـدية أن يعيش ، ولـكن حياة جـديدة بدأت تتهيأ له أسبابها ، حياة لاشيء فيها من خطأ ولا من ندم ، فليس إلا السعادة . وكان من الأمور البينـة أن تلك الأخطاء ان تعود بين الجبال ومساقط المياه والأخطار والشركسيات الحسان »

وجد المسير بهما جـده حتى بلغا ستارى يورت فى القوقاز وأقاما فى خيمة أول الأمر ، وأعجب ليو بمنظر الرواسى الشامخة من الجبال ، وكان لا يفتأ يقلب عينيه فيها ويتأمل فيما يبعثه منظرها من رهبة فى نفسه ، وكتب إلى عمته تاتيانا يصف لها تلك الأطواد فى نشوة وحماسة ، ويشرح لها البيئة التى سوف يقضى فى قراها قرابة ثلاثة أعوام ؛ وإن المرء إذ يقرأ ما جاء فى قصة « القوزاق » من وصف للجبال ليتملكه العجب من روعة وصفه ، ومرد ذلك الوصف البليغ الساحر إلى معيشته سنين فى سفوح هاتيك الجبال الشاهقة ...

ولم يكد يمضى أسبوعان عليه فى ستارى يورت حتى عاد إلى إحـدى عاداته السيئة التى كم اعتزم أن يطلقها ألا وهى الميسر ، فجلس يلعب ذات ليلة تخسر فى هـذه الجلسة خمسين وثمانمائة روبيل أو ما يساوى سبعة وعشرين ومائة من الجنيهات ، وكدرت نفسه هذه الخسارة لا ريب ، وكدرها كذلك عودته إلى هذا الذى طلب الهجرة ليتخلص منه وهو من أرذل نزعات نفسه ؛ ولـكن الندم عقب ذلك أخـذ يتغلغل فى أعماق نفسه . وآية ذلك أنه استطاع ألا يقرب الميسر بعد هذه الليلة ستة أشهر كاملة ، كان يقضى فيها أوقات فراغه فى الصيد والـكتابة والقراءة « وتعقب حسان القوزاق » . .

ولفت إليه ببسالته القائد العام فى تلك الجهة للجيش الروسى وذلك أثناء تطوعه ذات مرة فى حملة على بعض القبائل ، كانت مهمة ذلك الجيش هناك مطاردتها ؛ وقد اقترح القائد أن يلحقه بالفرقة ليكون أحد رجالها ؛ ووقع ذلك من نفسه موقعاً حسنا ، ولعله تخيل لنفسه ما تخيله أولينين بطل قصته من البسالة والقوة ، وحلم كما حلم أولينين بأن يكون قاهر القوزاق وبأن يعزى إليه وحده الفضل فى تسكين القبائل الثائرة هناك .

وأرسـل إلى تفليس ليمتحن هناك نوعا من الامتحان يهيئه النجاح فيه للالتحاق بالجيش ، ورأى فى تفليس ما يشبه الحياة فى قازان فحن إلى حياة المدن بعـد تلك الأشهر التى قضاها فى القرى والأماكن البرية وأوشك أن يعقد النـية على أن يعود أدراجـه إلى موسكو ، وصار يحس أنه يحيا فى تلك القرى حياة أشبه ما تـكون بالمنفى ...

وظل فى تفليس أياما يستمتع بمثـل ما كان يستمتع به فى موسكو أو فى قازان ، ويترقب بقلب نزوع وصبر فارغ نبأ إلحاقه بالفرقة الرابعـة متطوعا فإن ذلك كفيل أن يخرجـه من تردده ويجعله يركن إلى البقاء فى القوقاز .

وتم له ما أراد فعاد إلى ستارى يورت ، وهناك توثقت عرى الصـداقة بينه وبين فتى يدعى سادو ، وكانا يتعاونان فى السراء والضراء ويطعمان معاً كلما واتتهما فرصة لذلك ويقتسمان المـال بينهما ويتبادلان الهدايا ، وقد أعجب ليو بصاحبه وما رأى من بسالته وجميـل مودته وإخلاصه له ذلك الإخلاص الذى أدى به أكثر من مرة إلى أن يعرض نفسـه للأخطار لينجى صاحبه ؛ وطاب الفتى نفساً بهذه الصداقة وأحب من أجلها الحياة فى القوقاز .

وكان سادو مقداماً لا يهاب شيئا ، يهجم على قرى الأعداء فيأتى منها بما يبيعه وبذلك يحصل على المـال فهو متلاف يبسط يده كل البسط وأبوه على ثرائه يضن عليـه إلا بالقليل الذى لا ينقع غلته ...

وكان على ليو أن يدافع عن سادو كما يدافع هذا عنه ، ولذلك كان يتعرض لـكثير من الخطر من أجـله ، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يؤسر هو وصاحبه ، ونجا مرة أخرى من الموت وهو على حافته إذ انفجرت قذيفة مدفع على مقربة منه .

ويمنينا من هذا ما نذكره عن حياته فى القوقاز لصلته بفنه ، فلسوف يصف هـذه الحياة وصفاً يكسبه على حداثته ذيوع الصيت فى دنيا القصة ، ويضفى على عمله من الإصالة والروعة والدقة ما يسلـكه وهو حدث فى القلائل الأفذاذ .

(يتبع)

القصيف

٢٨٠٣٣